النور

الخميس ١٢ تشرين الثاني ١٩٩٢

قضايا ثقافية

الانسان والخطأ والظاهرة غريبة

قد لا يلاحظ المرء في نفسه شيئا من خطأ، او ميلا الى الخطأ. ذلك لانه اعتاد ان يرى ظواهر الامور. كذلك هو لا يعترف بأخطائه. لكني اشعر ميلا شديدا الى البحث عن خفايا الامور حتى لو اتت هذه الخفايا ضد الانسان، وضدي انا بالذات. لان ذلك سينير دربي اكثر واكثر الى الحقيقة، ومن ثم الى حيث لا خطأ.

رحت ابحث في حياة الانسان وفي الطبيعة البشرية بوجه عام، فلاحظت التالي:

اول خطوة يخطوها الطفل الصغير،لا بد وان يليها سقوط (السقوط ليس خطأ بالطبع، لكني اردت به مثالا رمزيا). ثم راقب طفلا صغيرا، حب الاستطلاع لديه غالبا ما يؤدي به الى عواقب وخيمة. فانت لا تستطيع ان تترك ولدا وحيدا في غرفة ملأى بالحاجيات، دون مراقبته مراقبة شديدة. قد يكون حب الاستطلاع ما يؤدي به الى نتائج غير سارة. لكن الطبيعة البشرية المتواجدة فيه تدعوه الى هكذا تصرف... حتى ولو كان الولد الصغير يعرف النتائج مسبقا.

كما انك لو تركت الولد الصغير ينمو على سجيته، لوجدته يكتسب جميع الصفات السلبية بالتأكيد.

لا شك ان الاهل يراقبون اولادهم اثناء نموهم يردعونهم عن كل خطأ، وينبهونهم الى عدم ارتكاب الاخطاء، يقومون خطاهم، يؤنبونهم، يوبخونهم، ينصحونهم، ويوعونهم الى السلوك السليم.

وتستمر هذه الحالة من الخطأ وتقويم الخطأ، طوال سنوات المراهقة... حتى يشعر الابن باستقلاليته عن والديه. لكن هذه الاستقلالية لا تعني الانتهاء من ارتكاب الاخطاء. فاذا ما انطلق الشاب في المجتمع، او من ميدان العمل، او حتى في حياته الخاصة، تجده يسمع التوجيه من فلان، وتصحيح الخطأ من ذاك وتوبيخ من رئيسه في العمل مثلا، الى ما هنالك... والبعض يستمر في هذه الحال حتى نهاية عمرهم.

موجز القول، الانسان ميال الى الخطأ ، فان لم يبق تحت مراقبة وتوجيه ذويه في الصغر، وتوجيه المسؤولين، وايضا توجيه نفسه في الكبر... فانك تجد حياته مليئة بالاخطاء والهفوات وزلات الاقدام!

لكن، انى له هذا الميل؟ أهي الطبيعة البشرية؟ وكيف حوت الطبيعة البشرية هذا الميل ولماذا؟

هذه التساؤلات كثيرا ما راودت ذهني وشغلت تفكيري. بحثت عن اجاباتها في مؤلفات عديدة، خصوصا في علم النفس. لكني لم اقتنع بواحدة من تلك الاجابات. لان الحقيقة لا تكمن في الظاهر، وعلم النفس ما زال يعالج افرازات النفس والقشور، دون ان يغور الى الحقيقة الكامنة في اللب!

وكعادتي في البحث بين شتى المراجع، اعود واتجه اخيرا الى علوم الشرق الاقصى القديمة، حيث اجد كل ما ابحث عنه، واجده بوضوح ومنطق يرضي الفكر ويريح النفس، يمهد الدرب الى توضيح الواقع.

فعلوم الشرق الاقصى القديمة تقول ما مفاده ان في الانسان طبيعتين، بل واكثر من ذلك. لكن الاكثر شيوعا ووعيا في الوقت الحاضر هما طبيعتان: الطبيعة الانسانية والطبيعة البشرية... وهما مختلفتان عن بعضهما البعض. بالرغم من ان فريقا من العلماء يعتبرانهما متوافقتين، ويعتقد انهما طبيعة واحدة.

تشرح علوم الشرق الاقصى ان الطبيعة الانسانية هي الطبيعة الاولى التي وجد فيها الانسان على الارض، تحوي حب المعرفة والخير، المحبة، حب الاطلاع والبحث، التفكير السليم الذي يقود الى الحقيقة الخ... اي كل ما قد يوصل الانسان الى الحقيقة، والى المعرفة والحكمة!

لكن الانسان لم يستمر على هذه الحال، بل شاء لنفسه دربا غير تلك التي ارادها له الخالق، فجاء ميله هذا منافيا للقانون الرباني، خصوصا بعد ان آثر الغوص في المتاهات المادية، وتكريس نفسه من اجل تلبية رغباته وغرائزه الارضية، دون الاهتمام بما هو اسمى من ذلك في نفسه.

بعد حصول ذلك التحول، نشأت طبيعة جديدة في الانسان، هي الطبيعة البشرية. تلك التي تحوي السلبيات الى جانب الايجابيات تحوي الميل الى المادة والتشبث بها، او هو الميل الى الخطأ!

بهذه الوسيلة، صار الانسان ميالا الى الخطأ، بعد ان تناسى طبيعته الانسانية، فاندثرت هذه الاخيرة في غياهب اللاوعي... واستمرت الطبيعة البشرية واعية حاكمة مسيطرة... والانسان لا يفعل سوى تلبية اوامرها وتنفيذ رغباتها!

من هنا كان ميل الانسان الغريزي الى ارتكاب الاخطاء!

اذن، ثمة وسيلة لعدم ارتكاب الاخطاء، اذا كان هذا الارتكاب واعيا او لا واعيا. وهذه الوسيلة توجزها التعاليم الشرقية بسيطرة الانسان على طبيعته البشرية، بما فيها من صفات سلبية، ومن ثم توعية طبيعته الانسانية. لكي تتسلم زمام التحكم... وتستعيد مكانتها ومهمتها الا وهو ايصال المرء الى الحقيقة، والمعرفة والحكمة!

خلاصة القول، ان ميل الانسان الى الخطأ ليس فطريا بمعنى الخلق فيه، بل مكتسبا عبر حيواته السابقة على الارض. وكل ما هو مكتسب يمكن التخلص منه بسهولة، بالسهولة نفسها التي اكتسب بها!

انطلاقا من هذه القاعدة، يصعب علينا التصديق بأنه سيأتي يوم يصبح فيه الانسان معصوما عن الاخطاء، او على الاقل يحيا بأقل عدد ممكن من الاخطاء!

المهندس جورج الحداد